الحلقة السادسة

الصيام و فضيلة الصبر

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : أيتها الأخوات المؤمنات :

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

و بعد : فقد مر بنا في الحلقة الخامسة أن تقوى الله - تعالى من أبرز حكم الصوم وأقوى أهدافه ، و في هذه الحلقة يتواصل الحديث عن غير ذلك من حكم وأسرار ، ومن بين تلك الحكم و الأسرار ، تقوية الإرادة ، وتحصيل فضيلة الصبر ، ويتجلى ذلك في وضوح مما يعايشه الصائم في نهاره ، فهو يمسك عن أشهى الطعام دون تفكير فيه ، ويجوع و لديه أفضل أنواع الغذاء ، و يعطش و بين يديه أعذب المياه ، و يعف نفسه و بجواره زوجته الحلال ، إنه يمسك عن كل ذلك، و يبتعد عن جميع المشتهيات ، و ينأى عن كل ما هو محبب إلى النفس مع أن كل أولئك قريب منه وفي متناول يده ، و ليس هناك رقيب عليه في كل ذلك إلا الله الذي هو مع خلقه أينما وجدوا وحيثما كانوا ، وليس لديه سلطان عليه إلا الضمير الحي ..إن هذا الامتناع عن كل أولئك ، ناشئ عن إراده صلبة ، و عزيمة قوية ، وخوف من الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ، ومصدر ذلك كله راجع إلى التحلي بفضيلة الصبر.

وإذاً فالصوم أعظم مدرسة لتربية الإرادة الإنسانية وتقويتها ، وهو أكبر معوان للإنسان على الصبر الجميل ، والرسول - صلوات الله وسلامه عليه-، عندما نادى الشباب وأمرهم بالتزوج عند تواجد الاستطاعة لديهم ،وبالصوم عند عدم القدرة على تحمل مسئوليات الزواج والإنفاق على بيت الزوجية ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - لم يأمر بالصوم من فراغ ، وإنما كان

هذا الأمر مبنينا على الواقع ومن منطق الحقيقة ، وصدق - صلوات الله وسلامه عليه - حيث قال :

- يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فإنه له وجاء . (البخاري).

إنهما أمران نبويان : أولهما حث على التزوج عند القدرة على النفقة ، لان الزواج عندئذ يترتب عليه غض البصر وتحصين الفرج وبناء أسرة ، وثانيهما: اللجوء إلى الصوم عند عدم القدرة ، لان هذه العبادة تحد من ثوران الشهوة ، وتضعف تأججها ، وعندئذ يكون الاتزان وعدم الانحراف .

وبما أن شهر رمضان وما فيه من صوم يغرس في المسلم الصائم فضيلة الصبر ، فقد نسب الرسول - عليه السلام - الصبر إلى الصوم حيث قال :

- صوم شهر نصف الصبر ، وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر.

(حديث صحيح).

وحيث قال : لكل شئ زكاة وزكاة الجسد الصوم ، والصوم نصف الصبر.

وهنا سؤال يتبادر إلى الذهن ، وهو لماذا كان الصوم نصف الصبر ؟

وللإجابة عن هذا السؤال يقال : إن الإنسان توجد فيه ثلاث قوى مختلفة، أما القوة الأولى : فهي شهوانية ، وتوجد هذه القوة في البهائم ، وأما الثانية : فهي غضبية ، وتوجد هذه القوة في السباع ، وأما الثالثة و الأخيرة : فهي روحية ، وتوجد هذه القوة في الملائكة ، إن هذه القوى مجتمعة في الإنسان وحالة في جسده وموجودة فيه ، فإذا تغلبت القوة الروحية على إحداهما كان ذلك نصف الصبر ، وفى الصوم يتغلب المسلم على قوته الشهوانية من بطن وفرج ،

وكان الصوم بهذا المعنى نصف الصبر .

والصبر عدة المؤمن في حياته الدنيوية ، فهو الذي يجعله يجاهد نفسه وعدوه ، وهو الذي يدفعه إلى ركوب متن الأخطار ، والاستهانة بالصعاب مهما عظمت ، وبالصبر يحقق الإنسان آماله في الحياة ، وبه يجنى ثمرة عرقه وجهده ، والصبر حلية المؤمن ، وبه يؤدى الإنسان عبادة ربه ، ويبتعد عن المعاصي والمحرمات ، وهو الذي يجعل الشدائد بردا وسلاما على قلبه ، فإذا أصيب في نفس أو مال ، وإذا اختبر في شيء عزيز لديه ، وإذا نزلت به جائحة في زرعه ، وإذا اعتلت لديه صحته ، فانه لا يهتز أمام شيء من ذلك ، ولا يجزع مما ألم به ولا تتبرم نفسه ، ولا يضيق صدره ، ولا تعلو الكآبة وجهه ، لأن قوة الإيمان تملأ قلبه، والإنسان بحاجة ماسة إلي الصبر ، لأنه عرضة للآلام ، ولان الدنيا لابد لها أن تصيبه بسهم من سهامها، وأن تمتد يدها إليه بالبطش ، وتلك هي طبيعة الدنيا ، وهذا هو نظامها ، وهى ذات متناقضات وعجائب ، وليس في مقدور الإنسان التحكم في طبيعتها ، وليس في استطاعته أن يخضع الدنيا لإرادته ورغبته، أو يسخرها كما يحب وينبغى .

وإذاً فالإنسان أمام سهام الحياة ومحنها بحاجة إلى الصبر ، لأنه العلاج الذي يزيل آثار ما ينزل به من كوارث وهو أمضى سلاح ضد نوازل الزمان ، وفضلا عن ذلك ، فإن الأجر المترتب على الصبر عظيم إذ أنه ليس محدودا ولا مقدرا بكمية معينة ، مصداق ذلك قول ربنا في كتابه الكريم :

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (الزمر : ١٠).

وقوله تعالى :

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا إليه راجعون أولئك

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾(البقرة ١٥٤- ١٥٧).

ويكفى الصابرين فخرا واعتزازا أنهم في معية الله ، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ (البقرة : ١٥٣).

والصبر ليس نوعا واحدا وإنما هو أنواع ، ولكل نوع أجر يناسبه ، فهناك صبر على أداء عبادة الله وله ثلاثمائة درجة من الأجر ، وهناك صبر على ترك المعاصي والبعد عن المحرمات وله ستمائة درجة ، وهناك صبر لما ينزل بالإنسان من بلاء وله تسعمائة درجة .. هذا هو الصبر وتلك هي نتيجته ، فما أعظم تلك الفضيلة ، وما أفضل ما يترتب عليها من ثواب جزيل وأجر عظيم من الله تعالى .

أيها الإخوة والأخوات : إن الصوم مدرسة كبرى نتدرب فيها عمليا على الفضائل ، ونتعلم فيها ما يعود علينا بالخير في دنيانا وأخرانا ، وهذه المدرسة تصقل النفوس ، وتصنع الرجال الأقوياء ، بإرادتهم وعزيمتهم وصبرهم ، الرجال الممتازين بأخلاقهم ، الذين يواجهون مشاكل الحياة بقلوب جريئة ، مليئة بالإيمان والصبر ، وعلينا نحن الصائمين أن نتعلم ونتعلم من هذه المدرسة الرمضانية ، وأن يكون صومنا صوما جامعا لكل المعاني السامية ، التي من أجلها جاء الصيام ، وأن نجسد تلك المعاني التجسيد الحي ، بحسن السلوك ، ومضاء العزيمة ، وبالصبر والجلد على أداء الواجبات ، وعلى البعد عن المحرمات، التي نهى عنها ربنا ، وبالرضا بالقضاء والقدر ، وبالتحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل ، وبهذا يكون صومنا قد أدى دوره وأثمر وانتج ، والله نسأل أن يجعل صومنا مقبولا لديه، مرضيا عنه ، مثمرا نافعا ، وهو سبحانه خير مسئول وأكرم مأمول .